

المقدس

تاريخ الحضارة

مترجم عن الفرنسية

نتائج الحروب الصليبية = كانت نتيجة الحروب الصليبية قصيرة العمر فلم تستطع مملكة القدس أن تقاوم المسلمين بل انحلت سنة ١٢٩١ وذلك البيزنطيون أساس الامبراطورية اللاتينية التي أسست سنة ١٢٠٤ وسكن القبر المقدس أخذ يجذب اليه كل سنة ألوفا من الحجاج فخصصت لنقلهم سفن تقلع من البندقية وجنوة ومارسيليا وهكذا ابتدأت الصلات المنظمة بين إيطاليا والشرق

ولم تكن توجد أدوات الزينة وحاصلات البلاد الحارة ولبازير الهند (كالفلل وجوز الطيب والزنجبيل والذرفة) والعاج وحرير الصين والاقمشة والبسط والسكر والقطن والورق الا في أسواق الاسكندرية وبغداد والاسكندرية وكانت هذه السلع التي يرغب فيها الغربيون من وراء الغاية ويسذلون في سبيلها كل مرتخص وغال ترجع أرباحا فاحشة فقد بدأ أهل البندقية رعيا الامبراطورية البيزنطية يتجرون مع بزنطية : وأخذ الناس في أوروبا في القرن الثاني عشر يؤثرون أن يذهبوا لاستبضاع متاجر الشرق من مصادرها فتبعت المدن التجارية الكبرى في ذلك العهد كالبنديقية وجنوة ويزا سفنها الى موانئ فلسطين حيث كانت تصل قوافل دمشق وبغداد وكان للبنادقة في القرن الثالث عشر حي خاص في القسطنطينية بعد أخذها ومكانا تجارية حتى البحر الاسود حيث يتجرون وطربزون وسمح أمراء المسلمين في مصر وطرابلس الغرب بالتجارة مع رعياهم وعقدت بالبنديقية وجنوة معاهدات تشبه هذه فأخذت مراكب البندقية وجنوة ترد بصورة منظمة الى الاسكندرية

تقل الايازر والاقمشة وعلى هذا فالصلات بين الغرب والشرق قد بدأت بحرب بين المؤمنين وانتهت بمسائل بين المتجرين وآثر تجار الالمان وكانوا الى القرن الحادى عشر يجلبون بضائع الاستانة بركوب المراكب فى نهر الدانوب أن يجتازوا جبال الالب ويبتاعوها من تجار ايطاليا فتغير طريق التجارة الأعظم وترك طريق الدانوب وأصبح طريقها من الاسكندرية مارا بالبندقية فثنية برنير فاكسبورغ فنورمبرغ

الصلات بين الشرق والغرب — نحضر الغربيون باحتكاكهم مع الشرقيين وانه ليعتذر القول فى تحديد الطريق الذى دخل منها الى اوروبا اختراع من اختراعات الشرق فهل انتهت اليها من طريق أهل الصليب (١) فى فلسطين أو من طريق التجار الايتاليين أو العرب فى صقلية أو من المغاربة فى أسبانيا ولكن يمكن تقدير الحساب بما نحن مدينون به للعرب وهذا الحساب يطول شرحه

فقد أنان من العرب (أولا) الحنطة السوداء والهلين والغنب والسكتان والتوت والزعفران والارز والنخيل والليمون والبرتقال والبن والقطن وقصب السكر التى صبحت أهم زراعات اميركا (ثانيا) معظم صناعاتنا فى القرن مثل الاقمشة الدمشقية القطنية والسرخيان واقمشة الحرير المزركشة بالقضة أو الذهب والشاش الموصلى والتفوف (البرنجك) والصندل والحبر والمخمل الذى زيد اتقانه فى ايطاليا بعد حين والزجاج والمرايا التى قدوها فى البندقية والورق والسكر وعمل الحلويات والمشروبات (ثالثا) مبادئ كثير من علومنا كالجبر وحساب المثلثات والكيمياء والارقام العربية التى اقتبسها العرب من الهند فسهل بها الحساب مهما كان صعبا . دع عنك السحر وعمل التعاويذ التى اعتقد فيها الايطاليون الى يوم الناس هذا وحجر الفلاسفة الذى كان بعض امراء الالمان يذلون من ما لهم للبحث عنه حتى القرن السابع عشر وذلك بواسطة صناع الذهب أو الكيماويين

ولقد جمعت العرب وقربت جميع الاختراعات والمعارف الماثورة عن العالم القديم فى الشرق (كيونان وفارس والهند بل والصين) وهم الذين نقلوها الى اوقد (١) ربما بولغ فى تقدير حظ الصليبيين من هذه الحضارة وذلك لان أهل الصليب فى فلسطين لم تكن لهم صلات الامع محاربين من المسلمين جاؤا الى عالم الاسلام حديثا وهم بركة متوحشون

دخلت كثير من الالفاظ العربية في لغاتنا (١) وهي تشهد بما قلناه عنهم . و بواسطة العرب دخل العالم الغربى الذى اصبح بربريا في غمار المدنية فاذا كان لافكارنا وصناعاتنا ارتباط بالقديم فان جماع الاختراعات التى نجعل الحياة سهلة لطيفة قد جاءتنا من العرب

تأثير الحروب الصليبية في المعتقدات — اثر الاحتكاك بالشرق في الافكار الدينية بين المسيحيين ايضا فقد تحمسوا اولاً للنزال والطعان ولما شاهدوا المسلمين عن أعم وأوا بينهم رجالاً أشداء متورين كرماء أمثال صلاح الدين الذى أدخل سبيل أسرى المسيحيين بدون قذية وبعت بطيبه الى أحد زعماء الصليبيين وقد مرض ليدأويه فبدأ المسيحيون يحترمون المسلمين واذا أراد الصليبيون أن يثبتوا فضائل الديانة المسيحية للمسلمين واليهود تناقشوا بينهم فاضطرتهم المناقشة أن يقابلوا بين الاديان الثلاثة ومن هذه المقابلة استنتج بعضهم ان الاديان الثلاثة باطلة اذ ان كل واحد منها يدعى بأنها حقيقية وما عداها باطل فقالوا انه جاء ثلاثة دجالين عظام (كذا) موسى وبسوع المسيح ومحمد (صلوات الله عليهم) فخدعوا اليهود والنصارى والمسلمين وهذه الحجة نسبت خطأ الى الامبراطور فريديريك الثانى وسرت في ايطاليا في القرن الثالث عشر . واستنتج آخرون العكس فقالوا ان الاديان الثلاثة حسنة كلها وقصوا هذا المثل : كان رجل خاتم له ارتباط بارتهم وكان يحب أولاده الثلاثة بدرجة واحد فصنع خاتمين اثنين يشبهان خاتمهم ودفع الى كل واحد منهم خاتماً ثم مات الاب فأنشأ كل من الاولاد الثلاثة يطالب بالأرث الذى له علاقة بالخاتم ففضى الفاضى بان يرث الأرث ثلاثتهم فالنصارى والمسلمون واليهود كلهم ثلاثة أبناء لاب واحد سماوى أراد أن يكون لكل منهم حظ من ارثه . وقد جعل المسيحيون في آخر هذه الفصية اختلافا فقالوا انهم أتوا بمرضى وأمسكوه الخوادم الثلاثة فشفى عند ما مس الخاتم الحقيقى والمعجزة تحك الدين الحق . والمعجزات قالت ان النصرانية أفضل

فرنسا في القرن الثالث عشر

الملكية الفرنسية في القرون الوسطى

ارتقاء الملكية على عهد السكابين — لم يكن ملك فرنسا سيدا الا في مملكته جاء

(١) مثل الالكحول والا كسير والجبر والانيق والمخدع والصفة والتميمة وفروح وكوخ ودار الصناعة وأميرال وسمت الرأس والرقم وصفر وغيرها

القرن الثاني عشر وأملا كه لا يعتمد بها فكانت سياسة البيت الملوكى فى فرنسا سياسة أسرة من الفلاحين تبحث فى توسيع أملا كه فىقتنى أفراده بالبىع والزواج والفتوح أملا كا يضمونها الى أملا كههم رويدا رويدا فيسطون أبديهم مرة على ولاية وأخرى على كونية صغيرة (سانس وملون) وأحيانا على محلة صغيرة (مثل مونترى وبوجنى) وقد زادت أملاك البيت الملوك على عم د فيليب أغسطس ثلاثة أضعاف ما كانت عليه بأخذ أملاك دوج نورمانديا . فكثرت عديد الفرسان فى جيش الملك كما كثر المال فى خزائنه والزعايا فى أملا كه أ كثر من كل أمير فى فرنسا وأصبح أقدر سيد فى مملكته وأتاب عنه فى أملا كه المنتشرة فى أقطار فرنسا حكاما أخذوا يضييقون خناق وكلاء كبار السادات ليجعلوا اسم سيدهم محترما فى كل صقع وناد

باريز على عهد فيليب أغسطس — كانت باريز فى القرن التاسع على عهد حصار النورماندين لا تتجاوز رقعة الجزيرة وفى أواخر القرن الثانى عشر امتدت على ضفتى السين ولكى يجعل فيليب أغسطس الاحياء الجديدة بأمن من هجمات العدو انشا حول المدينة التى وسعها على هذه الصورة سورا غليظا ذا أبراج لا تزال ترى الى اليوم بعض بقاياه وظلت المدينة أبدا فى الوسط وهناك كانت الكنيسة الكاتدرائية (التي أصبحت بعد كنيسة نوردام) ومقر الاسقف وقصر الملك (حيث جمع سان لوى فيها بعد مجلس نوابه وأصبحت دار العدل أودبوان المظالم) وعلى الشاطئ الأيسر من ناحية جبل سانت جنتيف طلبة المدارس ورجال الكهنوت الذين يمتثلون الى المدارس ومن هذه الجهة انتهى السور امام طرف جزيرة نورتل مارا بجبل سانت جنتيف وامتد الى نهر السين قبالة متحف اللوفر . وعلى الشاطئ الأيمن يبدأ السور قبالة المدينة وينهى باللوفر . وكان السكان فى هذه البقعة الضيقة يزدحمون حتى لا يضيعوا فراغا عظيما فكانت الأزقة ضيقة معوجة مظلمة لا بلاط فيها ولا نور . وليس فيها بوليس تفرع كل مساء علامة الانصراف الى البيوت فيعودوا لاهالى الوديعون الى منازلهم ويغلقون أبوابهم وكانت الأزقة عرضة للصووص والمتشردين من كل جنس ومن الخطر الجلل ان يلقى المرء نفسه فى التهلكة باجتيازها .

وما كان لمدينة باريز ادارة عامه بل كانت مبنية على أرض شطر منها فقط ملك الملك وكانت عدة احياء ولا سيما ما بين منها خارج السور من الارباح مبنية فى أملاك الاديار التى كانت بادىء بنيت فى القرى مثل سان جرمان دى برى (بالقرب من

برى أو كلرك الذى كان يمتد الى شاطئ السين) سان مرتان دى شان وسانت جنييف وليس الملك هو السيد فى هذه الاحياء بل رئيس الديرو له الحق لان يتقاضى كراء البيوت التى بنيت فى املاكه بل ان ينظر فى محكمته فى قضايا السكان والجرائم المرتكبة فى حيه اجمع .

وبعد فاما كانت باريز جسما واحدا حتى ان شطرها الذى هو ملك خاص للملك يكن منظما تنظيما للمدريات كما كانت كثير من المدن الصغرى (مثل أمين وسواسون وبوفى وغيرها) وليس لباريز سجل مديرية ولا شيخ بلد ولا مرقب بل كان العملة الذين يعملون عملا وحدا والتجار الذين يتجرون بصنف واحد فى باريز وفى غيرها من المدن يجتمعون اجتماعات لكل منها نظامه وصندوقه وزعمائه. وكانت أقوى النقابات فى باريز نقابة تجار الماء أى السواخذة تجهزى المراكب الذين كانوا يتجرون على السفن فى نهر السين ولهم زعيم سموه أمين التجار (شاهبندر) ويجلس ادارة مشايخ البلد وماليت أمين التجار ومشايخ البلدان عدوا بمرور الايام تمثلى الطبقة الممدنة فى باريز وسمى البيت الذى كانوا يجتمعون فيه منزل المدينة أو المجلس البادى وسمى اجتماعهم جماعة المدينة ولا يزال لمدينة باريز الى اليوم شعار من قارب بقلوع رمزا الى جماعة تجار الماء وأول من سعى فى تحسين عاصمته فيليب أغسطس رأس ملوك فرنسا فلم يسورها بسور فقط بل رصف بعض أزقة المدينة وطم البواليع الفدرة التى كانت حول قصره وما بدأت اقامة المصانع الجميلة الا فى القرن الثالث عشر ولم يبق فى باريزنا الحديثة من باريز فيليب أغسطس سوى قبة جرس سان جرمان دى برى وكنيسة سان جوليان لوبوفر الصغرى

سان لوى — كان سان لوى ملكا تام الادوات على نحو ما يطلب فى الفرون الوسطى مسيحيا خاضعا وقارسا شجاعا وقاضيا شديدا حاز جميع الفضائل التى تبلغها مدارك أهل عصره من مثل التقوى والشجاعة والعدل يحضر قداسين فى اليوم ويصلى الغداة ويلبس المسح ويغسل أرجل الفقراء ويعترف ويتناول تكفيرا عن سيئاته ويأمر بطرد اليهود واحراق الزنادقة ونقب السن المجدفين بحديدة بحجة فتراه فى الحرب يتقدم صفوف رجاله وما قتل شوهد فارس مشبه كما قال جوافيل فهو حكيم القرن يتأدب مع الله ويشعر بما يحب عليه بان يحكم بين الناس بالعدل وكثيرا ما يذهب الى غابة فنسين ليجلس تحت سديانة أو فى حديقة المديسة وكل من لهم شأن يأتونه

فيكمونه بدون ان يرعجهم مزعج من الحجاب فيحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون وأقصى امانيه ان يحكم في الجميع حكما عادلا لاهوى للنفس فيه . صلب أحد كبار سادات المملكة انكران دى كوسى ثلاثة من الطلبة لانهم اصطادوا في قصره قبض الملك عليه وجاء به الى قصره فطلب بقية السادات بحسب العادة ان يدفع هذا السيد عن نفسه بالبراز فابى سان لوى ذلك قائلا ان مسائل اغفراء والكنائس والاشخاص الذين تبغى لهم الشفقة لا يجب المرء ان يسترسل فيها على هذه الصورة فيجعل الحكم للغالب . فاغتاط السادات وخرجوا من قصره فترك الملك هذا الموضوع ووضع المسألة على بساط الحكم فتهف أحد الاشراف مستهزئا لو كنت ملكا لصابت بارونياتي نسمة الملك وقال له : ماتقول يا جان هل تقول ان الواجب ان أصلب بارونياتي لاني لا ايس الامر كذلك بل اني معاقبهم اذا أساؤا . ولقد كان الشعور بالعدل عظيما في سان لوى بحيث رفعه الى مستوى أعلى السادة وحظر البراز في كل بلاده وأصبحت جميع المسائل التي كان يتحاكم فيها الى البراز يحكم فيها بحجج وشهود لان القتال كما قال ليس طريقا الى الحق وبهذا فقد قدس سان لوى المملكة الفرنسية وعود القوم ان يروا ملك فرنسا مصدر العدل كله .

معاهد سان لوى — تقع سان لوى بالقوة والاحترام الذي حازه أكثر مما تقع بالقوانين والانظمة ولقد ظن زمنا طويلا انه سن جملة من القوانين كانوا يسمونها نظمات سان لوى ثم ادركوا ان هذه النظمات الموهومة لم تكن سوى تاليف مجموعتين في الحقوق أخذتا من العادات وكتبتا في أواخر القرن الثالث عشر على يد أناس من أرباب التجارب غير معروفين ولا علاقة لهم بالملك . وظن أيضا ان سان لوى ألف براءة او لوائح حقوق الكنيسة في فرنسا ثم ثبت ان هذه اللوائح المزعومة قد وضعت في القرن الخامس عشر وربما كانت بعد لوائح شارل السابع والامور الصادرة حقيقة عن سان لوى هي أوامر البراز ولوائح لتنظيم حسابات المستخدمين في املاكه .

الحياة العقلية والصناعية

كلية باريز — كان لباريز كما كان لعامة الابريشيات مدرسة ملحقة بالكاتدرائية وكان لكثير من الاديار مدارس خاصة بها (مثل سان جرمان دى برى وسان جرمان

لو كمروا وسانت جنيفيف) وقد كثر عدد الطلبة حتى ضاقت بهم الجزيرة فآخذوا
يزلون الضفة اليسرى من السين وهناك بنى سنق ١١٠٣ و ١١٢٠ كان احد العامة
من الشبان الذين جمعوا الى الجمال طلاقة وينا و اسما بلارد وهو أكثر أهل
عصره استنارة (و يعرف قليلا من اليونانية والعبرانية) يلقى دروسه فى الفلسفة على
ثلاثة آلاف مستمع وما كانت تسع هذا الجمهور قاعة ولا ردهة فجعل ابلارد يلقبها
بين الكروم فى جبل سانت جنيفيف .

وكان من العادة الجارية ان يعقد أهل الحرفة الواحدة اجتماعات فكلما يجتمع
الخياطون والحداثون وصانعو الاجواخ وأهل كل حرفة على حدة هكذا ألف الرجال
الذين يعنون بالمدراس اجتماعا خاصا وقد وقع استئصال البابا على هذا
الاجتماع فى القرن الثالث عشر فسمى مدرسة باريزكلية (أى مجموع) المعلمين
والطلبة فى باريز وكان لها رئيس منتخب وخدمتها ومعكمها التى لها الحق وحدها فى
ن تقضى بين الاساتذة والتلامذة وكثيرا ما تختلف كلية باريز مع أمين التجار فيعطيهم
الملك الحق دونه . وقد صلب أمين تجار باريز سنة ١٤٠٣ طالبين قبض عليهما فى
منازعة كالتى كانت تحدث كل يوم فى تلك الطرق الضيقة الغاصة بالمشردين
فاغلقت السكينة صفوفها فكانت هذه الوسيلة ذريعة الى نيل تعويض فاضطر
أمين التجار أن يذهب لانزال المصلوبين باحتفال وأن يدفعهما ويقدم اعذاره
للسكينة لانه خرق امتيازاتها

واقسمت السكينة الى حلقات اقسامها الى ضروب من التعليم فبعد ان أدخل
اليها تعليم الحقوق والطب (ولم يكن هذان العلمان يدرسان فى باريز قبل القرن الثالث
عشر) صار لها أربع مدارس اللاهوت والحقوق والطب والفنون . وكانت مدرسة
الفنون تحتوى على جميع علوم الترفيوم (النحو والبيان والمنطق) والسكودرفيوم
(الحساب والموسيقى والهندسة والفلك والفلسفة) ويقبض الاساتذة روائب كاتيناولون
أجورا من المستمعين ودرسهم مكتوب على دفتر يأتون فيتلونه على المسامع (١) ويسكن
الطلبة وهم من أعمار مختلفة فى المدينة ولكن منذ قام بعض المحسنين فى القرن الثالث
عشروا أنشأوا دورا لقبول الطلبة الفقراء أخذ كثير من يعيشون داخلين فى هذه المدارس
على طريقة جروافيا على نظام الاديار وكان لكل مدرسة ثلاث درجات فى التعليم

(١) هذه العادة ما زالت الى اليوم فى المانيا فان الدرس يسمى تلاوة

يُنْتَقَل الطالب من احداها بعد ان يثبت علمه بفحص وقضية يثبتها أو جدل يناضل فيه ثم يصبح بكلورا أو معلما أو دكتوراً وكان القوم يرغبون في نيل هذه الدرجات الثلاث لأن صاحبها يحظى له عملاً في الكنائس والمحاكم أو المدارس على أيسر وجه وكانت كلية باريز في القرن الثالث عشر أعظم مدرسة في أوروبا تؤوى زهاء عشرين ألفاً من الطلبة على اختلاف بلادهم. وهي التي رسمت لأوروبا صورة التعليم العالي وحدثت كليتا أكسفورد وكمبريدج الانكليزيان حذوها ولما أراد أمراء الألمان تأسيس مدارس في بلادهم انشأوا كلهم كليات جروا فيها على مثال كليات باريز ومنها انتهت المناظرة في الترتيب وتقسيم المدارس الذي لا يزال على حاله القديم في ألمانيا (١)

الحقوق الرومانية — مافى الأباطليون يضعون الحقوق الرومانية موضع العمل وقد أخذوا في القرن الحادى عشر يدرسونها في إيطاليا درساً أصولياً في كتب يوستينيوس (٢) فكان الاساتذة والطلبة يجتمعون في بولون وبلغ عددهم عشرة آلاف طالب واشتغلوا قرنين في تفسير كتب القوانين الرومانية والتعليق عليها سطرًا سطرًا وتألف من شروحهم ذيل علق عليه علماء القانون في القرن الثالث عشر شروحا جديدة وكانت الولايات الجنوبية في فرنسا فقط (حتى ولاية أوفرني) تعمل بالقانون الرومانى أما ولايات الشمال فتجربى على العادة ويحكم مجلس النواب في باريز بموجب العادة

بيد انه كان للقوانين الرومانية الترجيح على العادة وذلك لأنها هي التي دونت وهي وحدها تدرس في المدارس فكانت تسمى العقل أو الحق أى خلاف المادة بلا زيادة ولا نقص ويفضى القضاء والمحامون الذين يحملون شهادات الحقوق بضع سنين في دراستها بعضهم في بولون والآخر في اورليان أو مونبليه. وكان القانون الرومانى في عدة مواد يحكم بخلاف العادة فتشبع علماء القانون بهذا الحق وادخلوه بالتدريج حتى

(١) سميت مدرسة القانون في ألمانيا بمدرسة الفلسفة اما في فرنسا فقد قسمها نابوليون الى تفتين الآداب والعلوم (٢) كثيرا ما دار على اللسان ان الحقوق الرومانية قد نسبت بته الى ان جاء أهل بيزا بمخطوط من مجموعة الفتاوى (بندكيت) سنة ١١٣٥ ظفروا به في نهب مدينة امالفى والامر الواقعى الوحيد في هذه القضية هو انه كان في بيزا مخطوط من مجموعة الفتاوى معتبرة جدا.

على غير معرفة منهم في العادة وبدا أدماج القانون الروماني في القرن الثالث عشر ودام الى آخر القرن السادس عشر فتعدلت به العادات القديمة كل التعديل ولا سيما وقد أضعف سلطة السادة والمديريات التي سكنت عنها القانون الروماني وقوى سلطة الملك وحكامه لان المشرعين قد طبقوا على الملك كل ما كان يعطيه القانون للامبراطور الروماني من الحقوق كما طبقوا على عماله كل ما كان يعطيه القانون الروماني لولاة الرومان وحكامهم وفي قانون الرومان (ان ما يقضى به الامير يكون قانونا نافذا) فاصبحت هذه الحكمة قاعدة الحكومة في فرنسا ثم في المانيا وكانت أساس السلطة المطلقة .

رحلة الى المدينة المنورة

اللقاء

على نحو مائتين وأربعين كيلو مترا من جنوبي دمشق بين نهر الاردن غربا وزمالة العليا في طريق الحج شرقا ونهر الزرقاء شمالا ووادي الموجب جنوبا اقليم واسع خصيب سهلي جبلي اسمه اللقاء طوله من الشمال الى الجنوب ١٨ ساعة للفارس المجرد وعرضه من الغرب الى الشرق ١٦ ساعة او نحو مئة كيلو متر في مئة كيلو متر وهذا الاقليم الذي يبلغ بمساحته ربع جمهورية سويسرا هو اليوم جملة عمل قضاء السلط ما عدا مسيرة ساعتين من الجنوب داخلية في عمل السكر وقد حدد القداماء اقليم اللقاء بأنه بين الشام ووادي القري وقالوا ان فيه مدنا عظمى كثيرة وان قاعدته عمان وقيل ان السلط هي راموت جلعاد احدى مدن الملجاء ومدن اللاويين المذكورة في الكتاب المقدس وربما اشتق اسمها الحاضر الصلت أو السلط من لفظه لاتينية « سالتوس » ومعناها الجبال المشجرة وكانت فيامضى مدينة أسقفية في العهد المسيحي وقد دك المغول قلعتها ثم أعاد بناءها الظاهر بيرس البندقاري .

وموقع السلط على منحدر جبلين متناولين اشبه بمدينة زحلة في لبنان وكانت منذ ثلاثين سنة خالية من الخدائق والبساتين فتوفرت همه اهلها على استثمار